

المنجز النحوي العربي في الدراسات الفرنسية بين التفاعل المعرفي و التواصل الحضاري

Arabic Grammar in the French Studies between
Cognitive Interaction and Civilizational Communication

الدكتور: نور الدين لبصير

labessir.nouraddine67@gmail.com

جامعة امحمد بوقرة بومرداس - الجزائر

الملخص: تهدف هذه الدراسة للوقوف على حضور المنجز النحوي العربي في الدراسات اللغوية الفرنسية حيث انكبت الدراسات الفرنسية على النحو العربي لدراسته بأهداف متباينة، فانهالوا على التراث العربي ممّا هيأ أرضية علمية خصبة، ومتنوعة لحضور المنجز العربي في تلك الدراسة كل ذلك شجع الباحث لاستكشافه. لقد شكلت حضارة الشرق بكلّ حمولاتها تحدياً، وتهديداً للغرب الأوروبي، ولذلك أقبلوا على دراسة لغة الشرق خاصة مع قرار مجمع فيينا الكنسي عام (1312م)، والقاضي بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية للغات (العربية واليونانية والعبرية والسريانية) في جامعات (باريس وأوكسفورد وبولونيا وأفينيون وسلامنكا)، وكانت اللغة العربية على رأس هذه اللغات.

كما هدفت الورقة البحثية للإجابة لماذا هذا الحضور المكثف للنحو العربي عند الفرنسيين؟ هل لأنّ المدرسة الفرنسية أكثر المدارس الأوروبية اهتماماً باللغة العربية؟ أم ذلك راجع أنّ ماضيها مرتبط أكثر من غيرها من دول الغرب بالدول العربية، ولذلك كانت العلاقة بين هاتين الدولتين، والعالم الإسلامي علاقة تدافع ومغالبة أكثر مما كانت علاقة تواصل حضاري.

وفي اعتقادنا يبقى مصطلح المثاقفة من المصطلحات التي تعبر عن أوجه التبادل الثقافي (الأخذ، والعطاء) بين الحضارات البشرية المتعددة، وهو اتجاه يسعى أن يكون وسطاً بين الانفتاح المطلق الذي يؤول إلى الانصهار في ثقافة الآخر، وبين الانغلاق المطلق الذي يؤول إلى الانعزال تماماً عن الآخر، والعالم بأسره. الكلمات المفتاحية: النحو - العربي - المثاقفة - فرنسا - التواصل - التفاعل.

Abstract

This study aims to find out the attendance of the Arab grammar achievement in French linguistic studies, as the French studies devoted themselves to the Arabic way of studying it with different goals, so they descended on the Arab heritage, which provided a fertile and varied scientific ground for attending the Arab achievement in that study, all this encouraged the researcher to explore it.

The civilization of the East, with all its loads, posed a challenge and a threat to the European West. Therefore, they approached the language of the East, especially with the decision of the Synod of Vienna in 1312 AD, to establish a number of professorship chairs for languages (Arabic, Greek,

Hebrew, and Syriac) in universities (Paris, Oxford, Bologna, Avignon and Salamanca)), And Arabic was at the forefront of these languages.

The research paper also aimed to answer why this intense presence of the Arabic grammar among the French? Is it because the French School is the most interested European school in the Arabic language? Or is it because its past is more connected to Arab countries than other western countries; and therefore the relationship between these two countries, and the Islamic world was a relationship of defending and overcoming more than a relationship of civilized communication.

We believe the term intellectualism remains one of the terms that express the cultural exchanges (give and take) between multiple human civilizations, a trend that seeks to be a mediator between the absolute openness that leads to fusion in the culture of the other, and the absolute closure that leads to complete isolation from the other and the entire world.

key words: grammar- Arabic- acculturation-communication- French-interaction.

المقدمة: إنّ البحث في موضوع حضور الدراسات اللغوية العربية في الكتابات الفرنسية مجاله واسع، وقضاياها متعددة، ومتداخلة، يصعب الإلمام بها دفعة واحدة، ذلك لأنّ هذا النوع من التقريب، والمقاربة هو بالأساس مغامرة فكرية عويصة، لامتداده في ميادين كثيرة، ومتنوعة لذلك سنركز في هذه الورقة البحثية على صلات حضور المنجز النحوي العربي في الدراسات الفرنسية بين التفاعل المعرفي و التواصل الحضاري .

ولما كان التراث وهر روح الأمة - أيا كانت - إذ هو الكاشف لجذورها، والخييط الناظم لنسيج وجودها، وهو قدرها وأساس رقيها، وهو جماع مقومات شخصيتها، فلا غرابة أن يعرف تاريخ الفكر الإنساني في حقبة المتعاقبة المختلفة أنماطاً متباينة، و أشكالاً متعددة، وطرقاً متنوعة في التواصل، والتفاعل مع تراث الآخر، المنجز النحوي العربي في الدراسات الفرنسية بين التفاعل المعرفي و التواصل الحضاري

لقد انكبت الدراسات الفرنسية على النحو العربي، وتعليم قواعده فأنهلوا على التراث العربي مما هيأ أرضية علمية خصبة، ومتنوعة لحضور المنجز العربي في تلك الدراسة كل ذلك شجع الباحث لاستكشافه.

لا يمكن أن نصنف جهود الفرنسيين في خانة واحدة لقد تنوع مجال الاشتغال، وتعددت الأسباب والدوافع، ولا شك أنّ حضور المنجز النحوي العربي في الدراسات الفرنسية كان لدوافع، وأهداف دينية، وسياسية، واستعمارية، واقتصادية، وتجارية، وتاريخية، و علمية فيمكن الحديث عن أعمال فنانسان، وشيربونو، و باصيه، وماسكر، وهنري ماصيه، ورودنسون سيلفستر دي ساسي مكسيم، ذي بروفال، وبريزني، وجوني فرعون، وغيرهم كثير...تحاول الورقة البحثية الوقوف عند منجزاتهم، ومحاولة الكشف عن دوافع الاهتمام بالعربية على اختلاف مناصبهم العلمية، ومكانتهم العملية التي كانوا يشغلونها في فرنسا. كلّ ذلك يدفع للتساؤل عن جدوى دراسة تفصلات حضور المنجز النحوي العربي في الدراسات الفرنسية بين التفاعل المعرفي، و التواصل الحضاري للوقوف

على علاقة الآخر مع الأنا المختلف تاريخياً، وثقافياً، ولغياً، وفلسفياً... وليس الهدف من هذه الدراسة الوقوف على كل تفصيلات حضور المنجز النحوي في الدراسات الفرنسية في كل مراحلها المختلفة، لكن محاولة الوقوف على حدود حضور النحو العربي في الدراسات الفرنسية من حيث المنهج، والآليات، والمعالم، والحدود، والتصورات، والخلفيات الفكرية، وماذا استفادت منه الثقافة العربية، وماذا خسرت.. وهذا شك أن هذا يحتاج لجهد كبير لا تسمح به المساحة المخصصة لهذه الدراسة.

أهمية الدراسة:

- الوقوف على تفصيلات حضور المنجز النحوي العربي في الدراسات الفرنسية.
- البحث عن هدم الهوية، والفجوة، والتحرر من التبعية التاريخي المتراكمة.
- هل الدراسات النحوية دعمت الحوار الحضاري بين الشرق والغرب؟، وهل عملت على استشراف مستقبل العلاقات بين المجتمعات الشرقية، والغربية؟
أهداف الدراسة: محاولة تقويم العلاقة التي حكمت الشرق والغرب التي امتدت لمئات السنين، وإلى أي مدى رسخت التفاعل المعرفي والتواصل الحضاري.

للقاء والاصطدام بين ثقافتَي الشرق والغرب وجدلية الأنا والآخر والصراع القائم بينهما.
إشكالية الدراسة: وبناء على ما سبق تنبني إشكالتنا التي نودّ مقاربتها على جملة من الإشكاليات التي نرى أنها تشكّل المنطلقات الأساسية لمادة هذه الورقة البحثية هل سعوا لخدمة النحو العربي، أم لهدمه؟ هل دافعوا عن أصالة النحو العربي، أم شككوا فيه؟ لماذا سعوا لهدم الفصحى، ويدعون للععاميات واللهجات؟ أين تتجلى أعماهم؟ لماذا الاهتمام بالنحو العربي؟

المثاقفة بين المدرسة الفرنسية والنحو العربي: تمايز الأمم، والشعوب، واختلافها أمر طبيعي، وهو آية من آيات الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾¹، وهذا التمايز في الحلقة يستتبع اختلافاً في الثقافات، والنظم؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾².

وعلى الرغم من هذا الاختلاف، والتمايز لا يمكن للمجتمعات أن تعيش منعزلة عن بعضها البعض، وخصوصاً في ظلّ تحوّل العالم إلى مدينة كونية، وليس مجرد قرية كونية؛ بل هي تسعى لتبادل الخبرات، والتجارب مع بعضها البعض تؤثر وتتأثر، وعلى الرغم من محاولات الشعوب للحفاظ على نقاء العرق، وصفاء الثقافة، إلا أنّ حتمية التغيير الناجمة عن مثاقفة الآخر، التي زعزعت جيولوجيا المجتمعات، وبذلت مصائرهما في كثير من الأحيان، وأحياناً أخرى تلغي وجودها لتنصهر، وتذوب في ثقافة الآخر.

وتبقى المثاقفة رافداً من أهم روافد الثقافة، لذلك تسعى كلّ أمة من الأمم من خلاله للتفاعل، والاستفادة من إنجازات الآخرين، واستثمار ما لديه في تنمية كيانها، من أجل ذلك تتوق المجتمعات إلى المثاقفة، والتواصل مع الآخر، لذلك فقد عرفتها، ومارستها مختلف الحضارات الإنسانية، عبر تاريخها الطويل.

وقد ظلت الثقافة ظاهرة إنسانية مارستها الشعوب، والأمم على مرّ الحقب الزمانية المتعاقبة، ذلك أنّ الكائن الحي السوي لا بدّ له أن يفتح على الآخرين، ويتشاقف معهم عبر جسور الاتصال لتحقيق التأثير، والتأثر، والأخذ والعطاء، لأنّ الوعي بالآخر شرط ضروري، وأساسي لوجود ذاتنا، والوعي بالذات شرط ضروري، وأساسي لإثبات الهوية، لذلك لا تستطيع أية أمة تبحث لنفسها عن مكانة أن تنغلق على نفسها، وتتوقع داخل ذاتها، وتدعي القدرة على الاستمرار، لأنّ هذا الانغلاق الحضاري سيقودها إلى الموت المحتم.

إنّ هدف هذه الورقة البحثية تريد أن يتحول مفهوم الثقافة من التفاعل الثقافي المبني على النزعة الإمبريالية الراغبة في الهيمنة، والسيطرة، و محو الآخر، واستبعاده، وفرض التبعية عليه... إلى التفاعل الثقافي المبني على التسامح، والاحترام المتبادل، والندية، والتكافؤ... و منه هنا يأتي الحديث عن المدرسة الفرنسية لمثقفتها النحوي العربي.

لماذا المدرسة الفرنسية: تعدّ المدرسة الفرنسية أكثر المدارس الأوروبية اهتماماً باللغة العربية، حيث أضفت عليها طابع الجدية، والعمق، والاستمرارية، والرسوخ؛ فالمدارس التي أنشأتها فرنسا تتسم بالمؤسساتية كمدرسة اللغات الشرقية... فهي مؤسسات لمية أكاديمية ثابتة راسخة، ومستقرة حلت محل جهود الأفراد الضعيفة المتفرقة، و المتناثرة.⁽³⁾

-فرنسا تمثل حالة متفردة في علاقتها بالعالم الإسلامي، يضاف لها بريطانيا فهما (الإمبراطوريتان) الاستعماريّتان اللتان بسطتا سلطانهما على معظم العالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر الميلادي والنصف؛ ذلك أنّ ماضيها مرتبط⁽⁴⁾ الأول من هذا القرن، فالإرث التاريخي فرض نفسه للاهتمام بالمنطقة العربية أكثر من غيرها من دول الغرب بالدول العربية، ولذلك كانت العلاقة بين هاتين الدولتين، والعالم الإسلامي علاقة تدافع ومغالبة أكثر مما كانت علاقة تواصل حضاري.

-أنتج الإستشراق الفرنسي، والكنيسة رجالاً على درجة هامة من المعرفة، والثقافة باللغة العربية، فنقلوا منها مصادر عديدة، ونشروا بها أعمالاً تشهد لهم بالباع الطويل، ونعني بذلك النقل من العربية إلى الفرنسية.

كما اعترفت الباحثة حورية الخليلي بأنّ الفرنسيين بذلوا جهوداً كبيرة في تعليم اللغة العربية⁽⁵⁾؛ وقد اعترف الفرنسي روبر ميران أنّ من بين نقطة قوة الدرس الفرنسي في دراستها الشرقية أنّها ركزت على اللغة والأدب.⁽⁶⁾

-لعل من أوائل اعتراف بالمنجزات العربية وحضورها في أعمال الغربيين بدأ مع المدرسة الفرنسية على يد دي ساسي والذي اعترف بذلك: "لقد مهدت الطريق أمام كثير من طلاب العلم نحو تراث العرب المكتوب، كما عرفت بعض أهم الأعمال"⁽⁷⁾

-كانت فرنسا حاملة لواء الثقافة، والحضارة الأوروبية ومبادئها، وكانت الجامعات الفرنسية من أعرق المدارس ممّا رشحها لتكون قبلة للدارسين، ومسار العلم، والتعليم خاصة وجود شخصية دي ساسي حتى جعلها أحمد درويش أكل الدراسات مدينة لهذه الشخصية التي درست العربية وتعمقت فيها، وبفضلها انتشرت الدراسات المهمة بالعربية على أوروبا.⁽⁸⁾

ولا غرابة عندما نقف على ما كان يقوله جومار فرنسا تهذبكم، وتعلمكم، وتعي ما عليها من الدين للشرق على الغرب كلّ.⁽⁹⁾

الانتقام من ماضي الشرق فشل الحروب الصليبية، وسلسلة الهزائم التي منيت بها فرنسا: يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: "وكان احتلال الجزائر، بعد فشل حملة مصر، وهزيمة، واترلو، وتحجيم الخريطة الفرنسية في مؤتمر فيينا، قد أطلق الكبت الفرنسي من عقاله. وهكذا كانت تصرفات الجيش والمدنيين الفرنسيين تصرفات تدل على شذوذ غريب في العلاقات الإنسانية. فالمسألة هنا ليست مجرد احتلال أرض واستعباد شعب، ولكنها مسألة انتقام من الماضي كله: من فشل الحروب الصليبية، وهزيمة واترلو، وهزيمة الحملة على مصر، والهزائم الفرنسية القديمة أمام الجزائر، ثم الانتقام من احتلال العرب والمسلمين لأجزاء من فرنسا في القرون الوسطى. لقد كان الفرنسيون سنة 1830 لا يحملون أحقادهم فقط ضد الجزائريين، كعرب ومسلمين، ولكن أحقاد رجال الكنيسة والملوك والقادة، والرعايا الذين تحطمت أحلامهم في السيطرة على الشرق، وعلى العالم الإسلامي أثناء قوته.

ومن جهة أخرى اعتقد الفرنسيون أنهم في الجزائر أصبحوا خلفاء الرومان وأحفاد القيصرية. ورغم عدم تدين الفرنسيين الظاهري، فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم ورثة القساوسة والرهبان الذين كانوا على رأس الكنيسة (الكاثوليكية) في بلاد البربر. وقد رأينا أن تصرفاتهم وتصريحاتهم الأولى.⁽¹⁰⁾

-وفرنسا هي أقرب الدول الغربية إلى العالم العربي من غيرها، والعلاقة بين فرنسا والشرق بدأت منذ عهد قديم، منذ أن بدأ العرب بغزو مقاطعات منها.⁽¹¹⁾

وازداد الاحتكاك زمن الحروب الصليبية، و عززه إنشاء طرق التجارة، والرحلات، وإقامة معاهد وأقسام للدراسات الإسلامية والعربية في جامعاتها.⁽¹²⁾

دوافع الاهتمام بالعربية عموماً: لا يمكن أن نجعل دوافع، وأسباب الاهتمام بالدراسات العربية عموماً، والدراسات النحوية خصوصاً واحدة، فقد تنوعت، وتعددت يمكن إرجاعها إلى:

الدعوة للمسيحية: من الأهداف الأساسية لإنشاء كراسي اللغة العربية هو توسيع حدود الكنيسة، و يمكن أن نلمس ذلك في نصّ القرار الذي صحب إنشاء كرسي اللغة العربية بجامعة كمبردج عام 1636 م على أن الكرسي أنشئ: "بهدف توسيع حدود الكنيسة ونشر المسيحية بين المسلمين الذين يعيشون في الظلمات".⁽¹³⁾

ولا نستبعد أنّ من الدوافع التي دفعتهم للاهتمام بالعربية أنّها تعينهم على مجادلة أعداء المسيح من المسلمين، نجد ذلك عند (جيوم بوستل) (1510 1581م)، الذي قيل عنه إنه كان من دعاة الوحدة بين المسلمين والمسيحيين!، ومع ذلك لم يستطع أن يتخلص من النظرة التي ترى أن من فوائد تعلم العربية أنّها تعين على مجادلة المسلمين.

Bibliothèque orientale "المكتبة الشرقية" عندما قام برتملي ديريلو: Berthélemy d'Herbelot (1625 - 1695 م) بتأليف كتابه "المكتبة الشرقية" Bibliothèque orientale⁽¹⁴⁾

تحول الاهتمام بالعربية من الخبر إلى النص، أي: إلى استنباط المعرفة المتعلقة بالشرق الإسلامي، من كتب المشاركة أنفسهم وبذلك انتقلت المعرفة مع (ديريلو) إلى معرفة نصية، كل ذلك دفع لتعلم اللغة العربية، ويعدّ هذا الكتاب أول كتاب غربي يضم معارف عن الشرق الإسلامي في شكل موسوعة معجمية.⁽¹⁵⁾

وقد عدّ محمود المقداد أنّ بداية التوجه نحو الشرق كان من تأليف هذه المكتبة، فهي منطلق المستعربين الفرنسيين تحديداً للإطلاع على كلّ الشؤون العربية من لغة، وأدب، وتاريخ، عقائد، وجغرافية.. عن طريق اللغة الفرنسية نفسها، في حين أنّ المستعربين كانوا هم طليعة الواجهة للغة العربية، والاحتكاك المباشر بها، والإطلاع على ما فيها من غير وسيط.⁽¹⁶⁾

باعتبارها لغة وظيفية وأداة للحكم والسيطرة: لم يكن القصد من وراء الاهتمام المتزايد للوقوف لى النحو العربي في تعليم العربية، فإنّ لهم مدارسهم الخاصة، ومناهجهم المتميزة⁽¹⁷⁾؛ بل لأغراض وأهداف أخرى حيث كانت الإدارة تشجع على معرفة اللغة العربية للفرنسيين لا حباً فيها، أو تقديرًا لها، ولكن باعتبارها لغة وظيفية وأداة للحكم والسيطرة ومعرفة أفكار وتاريخ الجزائريين وما يدور بينهم في الأسواق والزوايا والبيوت، وما في كتب الفقه والأدب من نصوص وقوانين وقيم. وكانوا يقولون إن اللغة العربية صعبة، ومع ذلك لا بد منها خصوصاً عندما ارتبطت بها الترقّيات الإدارية، والوظائف الرسمية. فكانت العربية المكتوبة، أو الشفوية شرطاً لازماً، كما أنّ معرفة الفرنسية للعاملين الجزائريين في المصالح الفرنسية لازمة.⁽¹⁸⁾ وهو ما كان يقوم به جوني فرعون ثمّ برينيه فيما بعد حيث يكون يقومون بتدريس اللغة العربية، الفصحى والعامية، للفرنسيين لكي يكون في استطاعتهم الاتصال المباشر مع السكان⁽¹⁹⁾؛ وفي هذا الصدد يقول فيرو إن الفرنسيين قد فهموا مدى أهمية اللغة العربية وأنها واسعة الانتشار بين الأهالي. ورغم عدم مبالاة الفرنسيين باللغات الأجنبية فقد اضطروا إلى دراسة العربية الدارجة⁽²⁰⁾، وقد صرح بذلك برينيه بأنّها تضيف علاقات أكثر حميمة مع الأهالي، ويعدوننا لا غزاة؛ بل حماة لمصالحهم... ومن ثمّ يمكننا من بلوغ مصدر أفكارهم، وأحكامهم.⁽²¹⁾

بعث Bersson برسالة إلى المفتش العام دعاه فيها إلى ضرورة تعلم اللغة العربية، والتوسع فيها بهدف معرفة عادات، وتقاليده الأهالي، وطريقة تفكيرهم.⁽²²⁾

الاهتمام باللغات الشرقية: اكتشفت السلطات الفرنسية مدى أهمية اللغات الشرقية بالنسبة لمشاريعها فبادرت باريس بإنشاء مدرّاس اللغات الشرقية التي يحضرها الفرنسيون المترشحون للعمل في مستعمراتها كـالجزائر، وكانت اللغة العربية على رأس هذه اللغات خاصة بعد حملة نابليون على مصر سنة 1798، واحتلال الجزائر 1830، وتونس 1883، وتواجدهم في بلاد الشام، ولبنان (1920 – 1949)، والمغرب.

ولأهمية، ومكانة اللغة العربية بوصفها لغة عالمية كما ذهب إلى ذلك بوستل،⁽²³⁾ أنشئت من أجلها عدة كراسي، ومدرّاس⁽²⁴⁾

ومن المدارس التي أنشئت عدة كراسي للغات الشرقية مثل: ⁽²⁵⁾

- ريمس Reims.
- مدرسة شارتر.
- جامعة السريون أحدثت كرسي القسم العربي.
- معهد بوردو Bordeaux.

- كولاج دو فرنس Collège de France.

- école nationale des langues orientales vivantes.

وقد عدّ المؤرخ أبو القاسم سعد الله أنّ مدرسة اللغات الشرقية عندئذ لعبت دوراً مهماً⁽²⁶⁾؛ خاصة بعد الاحتكاك بالشرق، والوقوف على حضارة، وفلسفة، وفكر، وشرعية، ولغة الشرق، كلّ ذلك دعاهم، وحفزهم للتوغل فيه فحسباً، وتدقيقاً، وتحقيقاً، واقتباساً... خاصة بعد الهزيمة الصليبية.⁽²⁷⁾

وجود عدد كبير من المخطوطات العربية: بعد سقوط طليطلة سنة 1085 في يد الملك ألفونسو السادس سارع علماء، ومنهم الفرنسيون لدراسة المخطوطات العربية، وبذلك تحولت طليطلة إلى كعبة، قبله للدارسين⁽²⁸⁾؛ حتى ذكر بعض الباحثين أنّها وصلت إلى سبعة آلاف مخطوط.⁽²⁹⁾

حاجتهم لترجمة القرآن: يقول المستشرق الفرنسي بلاشير الذي ترجم القرآن إلى الفرنسية أكثر من مرة: "في جميع المجالات التي أشرنا إليها من علم قواعد اللغة العربية والمعجمية وعلم البيان أثارت الواقعة القرآنية وغدّت نشاطات علمية هي أقرب إلى حالة حضارية منها إلى المتطلبات التي فرضها إلى إخراج الشريعة الإسلامية، ولا تكون فاعليتها هنا فاعلية عنصر منبه فقط؛ بل فاعلية عنصر مبدع تتوطّد قوته بنوعيته الذاتية".⁽³⁰⁾ وهذا ما صرح به الكاتب الفرنسي لويس سيديو: "صلح القرآن ليكون نموذجاً للأسلوب وقواعد النحو فأوجب ذلك نشوء علم اللغة، فظهر علم البيان الذي درس في تركيب الكلام ومقتضى الحال والبديع وأوجه البلاغة وأضحى لصناعة قراءة القرآن وتفسيره أكثر من مائة فرع، فأدى هذا إلى ما لا حصر له من التأليف في كل منها".⁽³¹⁾ وهو الاعتراف الذي وجدناه عند أندري رومان في كتابة النحو العربي تحت عنوان اللغة العربية والحدث القرآني؛ بأنّ القرآن هو الذي حدد مصير اللغة، وأنّ القرآن علامة خاصة.⁽³²⁾ وقد دفعهم لدراسة العربية ما لاحظوه من تجانس الحضارة الإسلامية في جوانبها بسبب تأثير الدين ووحدة اللغة.⁽³³⁾ ومن هنا يمكن القول إنّ أول استثمار في اللغة العربية كان في ترجمة القرآن.⁽³⁴⁾

خدمة الاستشراق: ولا شك أن هناك تأليف أخرى في المعاجم واللغة والنحو سواء بالعربية أو الزواوية أو غيرها، وتعليمها جميعاً بواسطة الفرنسية، وخدمة الاستشراق الفرنسي. وذلك هو الهدف من كل هذه البحوث، كما عرفنا.⁽³⁵⁾ وقيل إن تدرّس هوداس للعامية الجزائرية في مدرسة اللغات الشرقية جعلت المدرسة تهتم أيضاً بلهجات الشرق العربي حتى أصبحت موضوعاً هاماً في مخطط الاستشراق الفرنسي. كما أنشئ بالمدرسة المذكورة (الشرقية) كرسي اللغة البربرية لأول مرة سنة 1913. وكان ذلك غداة احتلال المغرب الأقصى. وأول من تولى هذا الكرسي ديستان.⁽³⁶⁾

الموقع الذي تحتله الدراسات النحوية العربية: يقول تريبو: "الدراسات العربية تقع متوسطة بين النظام اليوناني في الغرب، والنظام الهندي في الشرق؛ فكان من الطبيعي أن تتوجه الأنظار لدراسته".⁽³⁷⁾

خدمة الأهداف الاستعمارية: وهذا ما كنا نلمسه عند باصيه سنة 1855 من خلال اهتمامه باللغات الشرقية، ولاسيما العربية. فقد كان مقتنعا بخدمة العلم لسياسة الإدارة الاستعمارية.⁽³⁸⁾ ولا غرابة في ذلك حيث كانوا كثيراً ما يربطون بين اللغة والاستعمار، وهذا ما نجده عند ماشويل الذي حاول إقناع قومه بضرورة تعلم العربية (تنازلاً) منهم لتعلم لغة المنهزم، من أجل المصلحة الاستعمارية فقط، وإلا فإنّ اللغة الفرنسية هي لغة السيادة ولغة المنتصر؛ وكان

في ذلك يرد على من يقول: "إن الواجب على (الأهالي) أن يتعلموا اللغة الفرنسية وليس العكس. وقال إن الوقت لم يحن بعد أن يأتي الأهالي أفواجا إلى الفرنسيين، ولذلك فإنّ على هؤلاء أن يعطوهم مبادئهم و أفكارهم بتعلم العامية والتقرب منهم".⁽³⁹⁾ وقد صرح بذلك المؤرخ الفرنسي جروسيه حيث جعل حملة لويس التاسع على الرغم من طابع القداسة الدينية المسيحية العميقة إلاّ أنّه يحصرها، ويحددها في إطار الحملة الاستعمارية التي قامت بها مملكة فرنسا؛ إذ يقول: "la croide de Luis IX malgré le caractère profondément religieux qui lui imprime la sainteté d son auteur ,se présente a contraire a nous ne de coloniale du royaume France"⁽⁴⁰⁾ السعي لصهر العنصر العربي في العنصر الفرنسي حال المغرب العربي.⁽⁴¹⁾

ولعل من دوافع الاهتمام بالعربية معرفة الآخر خاصة بعد الهزيمة في الحروب الصليبية: قضية ما يسمى بالآخر شغلت حيزاً كبيراً، ونقاشاً محتدماً، وجدلاً واسعاً في الطروحات الثقافية على الساحة العربية في الآونة الأخيرة، حيث توجه مهمة رئيسة إلى الأنا بأنه لا يعترف بالآخر، ولا يفقه التعامل معه، أنّ ثقافة الأنا، والآخر ينبغي أن يحتكم لقانون التوازن، والاتزان، لأنّه في اعتقادي القانون الراسخ في صنع الحضارات؛ في ظلّ الاختلاف الشديد يصعب تحديد مفهوم الآخر بمعزل عن مفهوم الأنا أو الذات، وهذا راجع لكونهما متداخلين؛ إذ يُسهم كلّ واحد منهما في تكوين، وتنمية الآخر، ف"بقدر ما ينضج مفهوم الذات، وترسم حدوده، فإنّ مفهوم الآخر في الجهة المقابلة ينضج بنفس المقدار وترسم حدوده"⁽⁴²⁾؛ فالمثاقفة تمثّل التفاعل بين الذات، والآخر من أجل صياغة جديدة تعكس رؤية تطويرية، وحضارية للعالم تقوم على أساس من الشراكة بين (الأنا)، و(الآخر) ولكن المثاقفة الغربية عموماً، والفرنسية خصوصاً حولت، واختزلت الدراسات النحوية في التعيين، والتنميط، والاختزال، بما يخدم مصالحها. فالأنا لم يصبح في معزل عن العالم، ولم يُعَدّ العالم في معزل عنه، إنّ قطيعة، ورفض الآخر هي عزلة للذات، تغيبه حضارياً، وثقافياً، ومعرفياً، وتاريخياً، كما أنّ الاندماج غير الواعي هو تذويب للهوية، وطمس للخصوصية من هنا كانت المثاقفة ضرورة وجود، وإمكانية توائم. والمثاقفة الراشدة هي التي تقوم على أسس متينة وتوظف "جملة من النماذج المعرفية، والمناهج الحكمية، والموازن الدقيقة للفصل بين المطلق، والنسبي، والمشارك، والخاص، والمؤقت، والدائم من ذلك التراث، وبذلك استوعب المطلق، والمشارك الإنساني، والدائم المستمر، وتجاوز النسبي، والخاص، والمؤقت".⁽⁴³⁾ ومثاقفة الأنا والآخر ولدت جملة من التجاذبات والصراعات الثنائيات خاصة بعد الهزيمة الصليبية لم يجدوا من وسيلة للوصول للآخر إلاّ بالوقوف على لغة العدو، ومحاولة رسم صورة الآخر يكون خاضعاً على الدوام لتلك المعايير الدلالية التي تحددها الثقافة التي تنتمي الذات إليها، وحينما تقوم الذات بتشكيل صورة للآخر فإنّ ما يتشكّل لديها من صور لذاتها، أو للآخر لا تكون دائماً وفي جميع الحالات نقية ومحددة؛ بل غالباً ما يختلط فيها الواقعيّ بالمثالي، وتتداخل فيها رؤيتها لحقيقة نفسها بما تريد إظهاره للآخر من صفات خاصة، وقد تتشكّل صورة الآخر لديها من عناصر انتقائية هي ما تريد أن تثبتها في ذهنها عن هذا الآخر، في حين تغيب عنها عناصر أخرى لا تراها، أو لا تريد الاعتراف بها.⁽⁴⁴⁾

إنّ العلاقة التي تجمع بين الأنا، والآخر؛ كما يقول دانيال هنري باجو: "أسسها التميز، والاختلاف، فإن حصل التوافق بينهما بالتقليد، كانت الأفضلية للنموذج، ويكتسب المقلد هوية الآخر، أو يكسب هوية مشوشة تنزوي إلى معالجة

هوية الآخر".⁽⁴⁵⁾ ليس القضية، و المشكلة في الثقافة الحاصلة بين الآن، والآخر: بل القضية هي اعتراف الآخر بالآن، والتسليم بوجود طرف محاور متكافئ، فالآخر لا يعترف إلا بنفسه، ولا يحاور إلا ذاته، هي الطرف، والطرف الآخر في نرجسية حضارية تاريخية شديدة، الآخر هو مجالها الحيوي، والمحقق لحاجتها، وامتداد نشاطها، الايدولوجيا الكولونيالية هي الآن والآخر، الذات والموضوع، الشمال، والجنوب، الموافق، والمعارض، المماثل، والمختلف.

نافذة يطلون بها على الثقافة العربية الإسلامية: إن الفرنسيين بذلوا جهوداً عظيمة في تعليم العربية لأبنائهم⁽⁴⁶⁾ ليكون عملهم نافذة يطلون بها على الثقافة العربية الإسلامية.

من منجزاتهم النحوية الترجمة: لقد بين الفرنسي جيران تربو أن من أعمال الفرنسيين في نقل الثقافة العربية خاصة الدراسات النحوية اعتمادهم على طريقتين؛ والطريقة التي تهمنا هنا هي الترجمة؛ إذ يقول:

"Il suffira de rappeler les deux manières par lesquelles ces arabisants européennes ont fait connaître le système grammatical arabe ; la première manière a été l'édition et la traduction en langues européennes: latin d'abord, puis français, anglais, et allemand"⁽⁴⁷⁾

وقد ترجم المترجم العسكري بالحكومة العامة، باقار، عملاً لمؤلف مجهول عن مورفولوجيا الفعل في اللغة العربية النص العربي، والنص الفرنسي في 42 صفحة .⁽⁴⁸⁾ كما ترجم سيكار، وهو أيضاً من العاملين في الحكومة العامة، رجزاً في النحو لحسن العطار المصري، سماه بحثاً في النحو العربي (34 صفحة).⁽⁴⁹⁾ كما قام أنطوان دو غوغييه بترجمة كتاب قطر الندى وبل الصدى لابن هشام سنة 1887.⁽⁵⁰⁾

اهتمامهم باللهجات العاميات: كانت اللغة العربية، وما زالت هدفاً لسهامهم المسمومة فعملوا على تفتيتها، و لعل من سمومهم إحياء العاميات؛ فقد كان ديسلان أستاذاً للعربية العامية الجزائرية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وهو الوظيف الذي أصبح رسمياً منذ 1871 حين عين ديسلان بالمدرسة المذكورة مكان بيرسوفال.⁽⁵¹⁾ خاصة في مؤلفه "الموجز" الذي حدد فيه خصائص اللهجة الجزائرية العربية . واهتم برينييه Bresnier وأعطى تفاصيل عن حياة السكان⁽⁵²⁾؛ كما له مؤلف آخر مبادئ اللغة العربية المنطوقة في الجزائر وإيلتها سنة 1883، حيث ركز فيه على اللهجات الجزائرية.⁽⁵³⁾

ما نلاحظه هو أن كثير من الفرنسيين اهتموا بالعامية مثل لكوسان دوبرسوفال الذي ألف كتاباً تحت عنوان "نحو العربية" والذي عدّ أحسن مصنف في هذا المجال، كما ظل مرجعاً Grammaire Arabe vulgaire الدارجة، للهجات في المؤسسات العلمية، والتعليمية.⁽⁵⁴⁾ كما نشر ماشويل كتاباً في قواعد اللغة العامية وبناه على المنهج الألماني والانكليزي الجديد ووجهه للشباب، قائلاً بصراحة إنه استفاد من أعمال روبيرتسون، وأوطو، وأولندروف أكثر مما استفاد من منهج زملائه الفرنسيين، أمثال برييه وشاربونو.⁽⁵⁵⁾ كذلك نشر شيربونو أعمالاً في اللغة معظمها حول دروسه العملية لطلابه. وكادت لا تخرج عن تمارين النحو والصرف، وقواعد تعلم الدارجة الموجه إلى الأوروبيين. وله عمل حول تصريف الأفعال في الدارجة وأصول وشكل اللهجة العربية الجزائرية وهي كلها تدخل في دراسة علم اللهجات. والاهتمام

بالعاميات، واللهجات وهو الطريق الذي سلكوه في المغرب والمشرق، فقد نشر جان جوزيف مارسيل مدير المطبعة في مصر في عهد نابليون كتاباً تناول فيه قواعد اللغة العامية المصرية. (56)

ومن اهتمامات الفرنسيين بالعامية كتاب جون فرعون المسمى النحو الابتدائي للعربية الدارجة، الموجه للفرنسيين، ثم بسطه، ونشره تحت عنوان موجز النحو العربي البسيط. (57). من الفرنسيين الذي أولوا اهتماماً كبيراً بالعامية خاصة الجزائرية، خاصة Charbonneau وكان شاربونو تلك المقالات التي نشرها في المجلة الأسبوعية 1861. (58) وكان الهدف من تعليم الدارجة هو نشر الثقافة الفرنسية مثل ما فعل فايسي حيث كان معلماً، ثم مديراً لمدرسة عربية - فرنسية في قسنطينة، وهذا النوع من المدارس كان يهدف إلى بث الثقافة الفرنسية عن طريق العربية الدارجة. (59)، كما ألف رينو كتاباً حول لهجة القدس. (60)، واهتم باريتملي بلغة حلب العامة ونشره سنة 1905. (61)

إنّ الإسلام قد رسخ خصوصية اللغة العربية، باعتبارها وعاء التنزيل، ولغة الوحي، فامتلك بهذا التشريف الإلهي مكانة رمزية، فقد وصف الله القرآن في أكثر من آية بأنه عربي؛ فجعل العربية وسيلة لفهمه؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف، 2). فطلب فهمه إنّما يكون من هذا الطريق خاصة؛ لذلك قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزحرف، 3)، وجعله عدلاً؛ فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (الرعد، 37)، وفرق بين اللسان الأعجمي واللسان العربي؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف، 12)، وجعله مبشراً، ومنذراً؛ فقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (النحل، 103)؛ وقال: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ (الشورى، 7)؛ وقال: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت، 3)، ووصفه بالاستقامة؛ فقال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر، 28) كما وصفه بالبيان؛ فقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (سورة الشعراء، الآية: 195)؛ وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (طه، 113)، أنزله عربياً لا عجمة فيه؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل، 103). فكثف القرآن من ذكر اللغة العربية لأنّ الخطاب القرآني خطاب لغوي، كان يهدف إلى مخاطبة كلّ الناس، فكان حامل الخطاب الرسول الكريم صلى الله عليه و سلم، و مرسل الخطاب هو الله تعالى والمرسل إليهم هم الناس جميعاً، و الرسالة هي القرآن الكريم، و الأداة التي صيغ بها الخطاب هي اللغة العربية، أما القناة التي مرّ عبرها الخطاب إلى العالمين فهو الرسول صلى الله عليه و سلم، لذلك كانت اللغة العربية ضرورية لفهم القرآن، لأنّ فهمه متوقّف على فهم لغته التي نزل بها؛ قال الشافعي: "وإنّما بدأت بما وصفت من أنّ القرآن نزل بلسان العرب دون غيره؛ لأنّه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه، وتفرّقها، ومن علمه انتفت عنه الشبهة التي دخلت على من جهل لسانها". (62)

لذلك كانت اللغة العربية ضرورية لفهم القرآن، لأنّ فهمه متوقّف على فهم لغته التي نزل به؛ 63 قال الشافعي: "إنّما خاطب الله بكتابه العرب على ما تعرف من معانيها". (64)

و تبقى الدّعوة إلى إحلال العاميّة محلّ العربيّة الفصحى من أدب النّاطقين بالضّاد، وثقافتهم ليست من مخترعات هذا الجيل؛ بل هي فكرة استعماريّة، والهدف الأساسيّ حرمان العرب، والمسلمين من تراث الفصحى، في الدّين، والعلوم، والآداب لتسهيل على الاحتلال مهمّته. (65)

لذلك لا بد من تحصين الذات: واستعير ما قاله إدوارد سعيد عن الثقافة لإسقاطه على اللغة فإننا سوف نقنع ولا بد بأنّ جدلية تحصين الذات وتوكيد الذات التي تحقق من خلالها الفصحى هيمنتها على المجتمع، والدول، هي جدلية معتمدة على تلك الممارسة الدائمة التي تمارسها الدعوات المشبوهة للتخلي عن الفصحى لعزل ذاتها عن كل ما تتصوره لا يمت بصلة إلى ذاتها هي وأما الأسلوب الذي يتم به هذا العزل فهو على الدوام وضع العاميات، واللهجات، واللغات الأخرى المدعومة فوق الفصحى. (66)

دفاعهم عن أصالة النحو العربي: ولعل من الفرنسيين القلائل الذين دافعوا عن أصالة النحو العربي من خلال كتاب سيوييه جيار تربو ، فقد ساق جملة من الأدلة للدفاع عن النحو العربي، من حيث الناحية التاريخية، والتقسيمية، واللسانية، والموضوعية، وعدم تأثره بالنحو اليوناني، ويخلص إلى أنّه من الناحية اللسانية يظهر لنا أنّه من المستحيل أن يكون التقسيم العربي منقولاً من التقسيم اليوناني لأنّ عدد الأقسام، ومضمونها يختلف في النظامين اختلافاً تاماً؛ إذ يقول: " La grammaire arabe telle que Sibawayhi l'expose dans son ouvrage ,diffère profondément par sa conception générale et sa méthode ;aussi bien de la grammaire gréco -latine que de la linguistique moderne "

وهو الذي اعترف بأنّ المستعربين الأوروبيين اقتفوا آثار النحاة العرب في تأليف النحو وهي الطريقة الثانية بعدما قدم الطريقة الأولى الترجمة؛ إذ يقول في هذا الصدد:

La seconde manière par laquelle les arabisants européennes ont fait connaître le système grammatical arabe ,est la composition de grammaire de l'arabe selon la méthode des grammairiens arabe".

ومن الذين دافعوا عن أصالة النحو العربي أرنسن رينان حيث أنصف النحو العربي، وأكد أصالته وأنّه غير متأثر بالنحو اليوناني، وخاصة من تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، ويذهب إلى حد القول لو كان النحو العربي متأثراً باليونان لظهر ذلك في مصطلحاته ومسمياته..

خدمتهم للنحو العربي من حيث التأليف: ألف برينيه Bresnier عدة كتب؛ منها "الدروس العملية والنظرية للغة العربية" وهو كتاب ظل فترة طويلة مقررًا في المدارس حتى بعد وفاة صاحبه. وعدّ الكتاب مرحلة هامة في البحث اللغوي بالجزائر. ومن مؤلفاته أيضاً المختارات العربية الابتدائية - (أنطولوجيا)، وكتاب (المكاتبات/ الكريستوماتية - العربية)، وله مؤلفات بعنوانين متأثرة بالطريقة العربية المسجعة، مثل: (تجريب القلم في خط العرب والعجم) و (تحفة الطلاب وبهجة الأدباء)، و (مفتاح النحو والأدب لفتح كنوز علوم العرب)، وأخيراً (مجموع المكاتيب في العربية والمعاني الغرائب). وقد عرفنا أن برينيه قد بقي سيد الاستشراق الفرنسي في الجزائر أكثر من ثلاثين سنة. وتخرج على يده معظم ضباط المكاتب

العربية ومترجمي الإدارة، والقضاء. وهو كمعلم لم يقيم بالدراسات الإسلامية ولا بترجمة النصوص إلا ما يتصل منها بمهنة التعليم.⁽⁶⁷⁾

النحو العربي: كتاب Grammaire de l'arabe لأندريه رومان André Roman ، والذي أسهم في بلورة رؤية جديدة تتماشى وعلم اللغة الحديث: فالعمل الذي قام به ليس عملاً روتينياً يضاف لرفوف المكتبة كما قال المترجمان د. علاء إسماعيل، ود. خلف عبد العزيز، حيث قدم رؤية جديدة للنحو العربي، وربما سادته على ذلك ثقافته الواسعة، ودرايته باللغات اللاتينية، واللغات السامية، وقواعدها. وقد ألّفت مجموعة لا بأس بها من الكتب من ذلك ما ألفها دي ساسي ها بالعربية ككتاب "الأنيس المفيد للطالب المستفيد"، و "المختار من كتب أئمة التفسير والعربية" في النحو واللغة، وألفية ابن مالك. ومنها ما ألفه بالفرنسية، لتعليم الفرنسيين النحو والصرف العربيين، المسمى "التحفة السنية في علم العربية" يقع في جزئين درس من خلاله عناصر الكلام العربي، والكتابة العربية...، وتصريف الأفعال، وأزمنة، وأزمنة الأفعال، و الالاف في عمل دي ساسي في هذا الكتاب تقديمه وصفاً دقيقاً، ومستفيضاً لأنماط بناء الجمل العربية، ومثلاً لها تمثيلاً دقيقاً مع تقديم آيات من القرآن الكريم، ومصادر الأدب العربي القديم. ولعل من أحسن الكتب في الدراسات النحوية كتاب بلاشير، وديوميين الموسوم نحو العربية نشر سنة 1937؛ يقول المقداد: وهو من أجود كتب النحو العربي بالفرنسية.⁽⁶⁸⁾

من ملامح تناوله للنحو العربي: أنه استطاع أن يصك في الدراسات العربية مصطلحين مهمين من اللاتينية هما:

Res – Modus

المصطلح	مفهومه	مجال إطلاقه	ملاحظات
Res	عنصر لغوي خالي من الزمن؛ ويقصد بها كيانات العالم التي يستقبلها الإنسان بنفسه خارج الزمن	يشير تحديداً إلى اسم الذات شيء ما طفل <i>Enfant</i> ، واسم المعنى فكرة ما عظم <i>Grandir</i>	ويخلص إلى نتيجة أن الواقع في الاستخدام اللغوي ليس ممكناً إلا من خلال مركب لغوي يتألف من عناصر لغوية.
Modus	عنصر لغوي يتضمن الزمن فهي كيانات العالم التي يتخيلها الإنسان بنفسه في الزمن حيث إسهاماته مسجلة في صيرورة ظاهرة من الزمن والذي يشغل جزءاً منها	يقصد به تحديداً كلما <i>Action</i> يشير للحدث أو حركة <i>Mouvement</i> <i>enfenter</i> يلد مثل <i>grandir</i> يكبر تحديث <i>actualisation</i> طفولي <i>enfantin</i>	—حسب رومان أن الإنسان يبدع بكثرة العناصر اللغوية خالية من الزمن، وأخرى الزمن جزء منها ومن المفترض أنه حين يضيفها إلى قاموسه اللغوي ويضع لها اسماً تصبح مركبات لغوية.

دراساتهم للنحو العربية وفق التصورات اللسانية الحديثة: كان شيربونو يعلم القراءة والكتابة ويعرض قواعد النحو العربي طبقاً للدراسات الفرنسية الكلاسيكية. وكذلك يعرض حياة المؤلفين، مفضلاً أولئك الذين يقتر أسلوبهم من الحياة اليومية.

(كان) إنما تجيء لتحديد زمن الجملة الاسمية، وليس لها دلالة حديثة: يذهب المستشرق الفرنسي بلاشير وظائف كان وأخواتها، فيذكر أنها أفعال تدخل على الجملة الاسمية لتحديد الزمن، وكذلك إذا أريد دلالة النفي négation، أو النهي prohibition، أو التبعية subordination؛ حيث إن الجملة الاسمية بمفردها لا تمتلك أن تعبر عن ذلك.. وبدخول (كان) على الجملة الاسمية تصير جملة فعلية، حيث إن المسند وضع في حالة نصب كأى مفعول معتاد⁽⁶⁹⁾.

ادعاء أن العربية جزء من التراث القومي الفرنسي: فقد ادعى لويس ماسينيون المستشرق المعروف أثناء سفره إلى القاهرة لحضور اجتماع مجمع اللغة العربية، بأن (اللغة العربية ليست غريبة عنا - الفرنسيين - بل هي جزء من تراثنا القومي). فرد عليه ابن باديس قائلاً: إن ماسينيون لو أراد حقاً خدمة العربية لنصح حكومته الفرنسية بالتوقف عن الإساءة إليها في الجزائر حيث هي محاربة وتعليمها مضطهد، ولطالب حكومته بجعل اللغة العربية لغة رسمية، ودعا إلى حرية تعليمها. واستغرب ابن باديس من قول ماسينيون إن العربية من تراث فرنسا القومي، مؤكداً له أن ذلك مجرد مجاملة منه للمشاركة، وفيهم تلاميذه من أمثال طه حسين وزكي مبارك، أما الحقيقة فهي أن اللغة العربية إنما هي (تراث القومية العربية فقط) وليس لفرنسا شأن في ذلك، بل إن اللغة الفرنسية هي تراث القومية الفرنسية فقط. أما الشيخ أبو يعلى الزواوي فقد رد على لويس ماسينيون من جهة أخرى. فحين دعا ماسينيون العرب إلى استعمال الحروف اللاتينية، كما فعل الأتراك⁽⁷⁰⁾.

عوائق كتابات الفرنسيين في النحو العربي:

اعتمادهم على غير المقدمات التي وضعها النحاة العرب: إن المشكلة في كتابات الفرنسيين في دراستهم للنحو العربي أنهم اعتمدوا على غير المقدمات التي وضعها النحاة العرب أنفسهم؛ بل كان ينبغي الانطلاق من المقدمات التي وضعها النحاة العرب أنفسهم حتى يتسنى لهم فهم التفكير النحوي الذي انطلق منه نحاة العرب ومن غير ذلك لا يمكن أن نفهم المنطلقات التي انطلق منها النحاة العرب في نظرتهم للنحو، ولذلك عدّ ذلك عائقاً من عوائق الفهم، ولعل ذلك ما دفعه لمقاربة النحو العربي وفق المقاربة التاريخية، والمنهج المقارن.

صعوبة نقل وترجمة المصطلحات النحوية: حيث اعترف دو ساسي بذلك؛ حيث يقول في هذا الصدد:

"l'étude de la syntaxe est extrêmement difficile... par l'effet de la multiplicité des termes techniques empruntés à la langue arabe"

وبسبب تلك الصعوبة نراه يلتمس الأعذار لتوجه كثير من المترجمين لإعطاء مفاهيم لاتينية جديدة للنحو العربي

Auxquels les Traducteurs se sont contentés de donner des formes et une terminaison latines ; ou bien qu'ils ont rendu par des formes barbares qui n'offrent aucune idée claire et précise "

و من أجل تلك الصعوبة في صياغة المصطلحات اعترف جيرارد تربو بصعوبة صياغة المصطلحات النحوية

ولذلك هو يتأسف على استبدال المفهوم العربي بما يقابله من قيمة جديدة في اللغة اللاتينية؛ يقول في ذلك:

"je me suis excusé en traduisant certains termes arabes par d'autres à notre grammaire française je dois m'excuser d'avoir donné à certains mots une valeur technique nouvelle".

على الرغم من أنه أفاد كثيراً في صياغة و هو الدافع نفسه الذي لامسناه عند بوستل في المصطلحات النحوية العربية، وقد ساعده في ذلك اعتماده على المصادر العربية، والمخطوطات العربية، ومع ذلك كله سعى كغيره من الفرنسيين لإدخال مصطلحات النحو اللاتيني في صياغة المصطلحات النحوية العربية، وقد انتقد المستشرق الألماني يوهان فوك، ووصف كتاب بوستل بالضعف، وكثرة الأخطاء. وهي من الهنات التي صحبت أغلب الدراسات الفرنسية التي اهتمت بالنحو العربي حيث حاولت دراسة النحو العربي بمنهج اللغات الأجنبية، وباستعمال المصطلحات اللاتينية مما أداهم للوصول إلى نتيجة مفادها أن النحو العربي مقتبس من النحو الإغريقي القديم؛ لذلك اكتفوا بالتحليل اللاتيني باعتباره التحليل الوحيد الممكن، وكان يعتقدون خلال السنوات المائة الأخيرة أن منهج النحاة العرب غير جديرة بالبحث العميق، وهذا ما نجد في أبرز الفرنسيين المهتمين بالنحو العربي

إبعادهم الدراسات النحوية عن القرآن الكريم: وكان رينان قد اعترف أن إبداع النحو العربي كان من خلال كتاب كل المسلمين وهو القرآن. و لذلك حين سيطر الفرنسيون على الوضع في الجزائر - بعد 1850 - فرضوا أيضاً شروطهم على الاستمرار في تدريس اللغة العربية والعلوم الإنسانية. فقد شجعوا اللهجات العربية والبربرية الدارجة، لإماتة الفصحى.⁽⁷¹⁾

دراساتهم للنحو العربي واللغة عموماً لم يكن هدفه البحث العلمي، والمساهمة في نشر الفكر الشرقي بغية التفاعل الحضاري، والتواصل العلمي؛ بل اتخذوه كوسيلة للتغلغل السياسي حتى ظلت دراساتهم للمنجز النحوي حبيسة الدور الموكل لها.

محاولتهم جعل النحو كله في مدرسة واحدة البصرة: لقد حاولوا أن يجعلوا النحو كله في مدرسة واحدة، وهي مدرسة البصرة، ومن ثم التشكيك فيها، وفي وجودها، وفي أفكارها... للوصول إلى القصد والهدف الذي سطروه وهو أن النحو العربي ما هو إلا نتاج لأفكار، وثقافات أخرى .

إضعاف صلة المسلم بلغته العربية: لقد أدركوا أهمية اللغة العربية وخطورة منزلتها في الإسلام، وفي فهم كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فكان من أهم محاولاتهم إضعاف صلة المسلم بلغته العربية، وإضعاف شعوره بضرورة التمسك بها، وطرح أفكار غريبة مريبة تصرف المسلم عن لغة دينه ورسالته في الحياة. واستمرت هذه المحاولات قروناً واستغرقت جهوداً كثيرة، ومتابعة متواصلة دون ملل. فطُرِحَتْ أفكار لتغيير قواعد اللغة العربية أو بعضها، وأفكار لتغيير أحرفها وكتابتها. وقد ألقى المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون فرانس (Louis Massignon (1883-1963) في باريس محاضرة في جمع من الشباب العربي عام 1929م، جاء فيها: "إنه لا حياة للغة العربية إلا إن كتبت بحروف لاتينية".⁽⁷²⁾

الخاتمة: فهذه الورقة البحثية لا تدعى - ولا ينبغي لها أن تدعى - الإحاطة بكل تفصيلات المنجز النحوي العربي في الدراسات الفرنسية، كما لم يكن هدفنا رصد جميع محطات هذا الخطاب بكل تفاصيله، ورؤاه حول الدراسات النحوية العربية لأنّ هذا العمل في اعتقادنا يحتاج في حقيقة الأمر لأكثر من جهد باحث، كما يحتاج إلى فضاء أرحب التي لا تسمح به هذه الدراسة على الرغم من أهميته في رصد الذاكرة التاريخية للأمة العربية، والإسلامية، ولكنها حاولت جاهدة القبض على مفاصل هذا الخطاب من حيث التفاعل المعرفي، والتواصل الحضاري بما يفي بالغرض في المساحة الممنوحة لي في هذه الساحة العلمية على الرغم من أهمية هذا المشروع لبيان الاختلالات الفكرية التي أوقعت هذا الفكر في قطعة

معرفية مع المرجعية التي اعتمدها الأمة، وانتكاسة، ووردة فكرية؛ بل حاولت الدراسة الوقوف على بعض مظاهر هذا الخطاب في تعامله، مع الدراسات النحوية العربية عبر بعض الإشكاليات التي حددت كإطار للمعالجة، والمقارنة. ولكن حسبها أن تكون قد أثارت بعض الأسئلة، وطرحت بعض الإشكالات، وأثارت بعض المساحات المظلمة، وكشفت عن بعض المواطن الخفية، وأسهمت بشكل، أو بآخر في تجلية الظاهرة، وبلورتها وفق الرؤية التي ارتضاها البحث الذي لا يؤمن بالإجابات القطعية، والأحكام المبرمة عن الذات في علاقتها بالحقيقة.

النتائج: توصلت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

1- على الرغم من حضور المنجز النحو العربي في الدراسات الفرنسية إلا أننا لا نكاد نجد اعترافاً من الدارسين الفرنسيين، أو من غيرهم بمكانة هذا النحو وتأثيره في الدراسات الغربية التي استفادت منه خاصة في كتب المدارس اللسانية الحديثة التي لا تكاد تشير إلى منجزات نحاة العرب القدامى، وإسهاماتهم في البحث اللغوي. وعلى الرغم من هذا الاهتمام بالنحو العربي فلم ينجحوا في لفت الاهتمام لقيمة هذا النحو؛ بل وجدناهم يتجاهلون مكانته عمداً، أو جهلاً؛ لذا لا بد على الباحثين العرب من إبراز هذه المكانة.

3- وقد أعاب عبد الرحمان الحاج صالح على هؤلاء ادعاؤهم البحث العلمي التنزيه على الرغم من أنها تنفي كل طرفة للمناهج العربية في النحو، وتكر أن يكون للنحاة العرب أي شيء جديد، ولتحقيق هذا الهدف كانوا يعمدون لمقارنة المصطلحات النحوية العربية بالمصطلحات اليونانية. (73) وبدلاً من الإقبال غير المسبوق على الدراسات اللسانية الغربية، والنظريات الغربية من قبل الباحثين العرب لماذا لا نقلب الصورة، ونعكس الواقع ونبرز كنوز وجهود علماءنا النحاة، وغيرهم ونجعل الآخر يقبل على الدراسات النحوية العربية.

5- نجد الفرنسيين كغيرهم من الأوروبيين ركزوا في دراساتهم على العمومية لأنها السبيل الوحيد للقضاء على الفصحى لأنها لغة القرآن، ولذلك روجوا في كتاباتهم لفكرة صعوبة الفصحى، وسهولة الدارجة، لذلك يمكن عدّ دراساتهم للغة العربية من أجل الرد على القرآن، والتقليل من قيمته، و التوهين من شأنه عند المسلمين من جهة، والحيلولة دون نشر مبادئه إلى بني جلدتهم. (74)

6- مهما اختلفت، وتباينت النوايا في حضور المنجز النحوي في دراسة الفرنسيين، فقد كانت بأهداف مختلفة، ومتباينة، لكنّها تبقى شاهدة عليهم في بناء المخططات، وتدمير المجتمعات. ولم يكن هذا الاهتمام بالمنجزات النحوية العربية في الكتابات الفرنسية سواء أكان جهداً فردياً، أم مؤسسياً من أجل التفاعل معه، وكشف حضارته، وهويته، وخصائصه الفكرية؛ بل ما هو إلا مشروع يهدف لإعادة النظر في تشكيل نظرة نحو الشرق، وهذا ما نلمسه في اعتراف محمد علي كرد الذي ذهب إلى أنّ هؤلاء المستعربين أكثرهم جعلوا بحوثهم حول العربية، وغيرها خدمة لدولهم. (75) كما أن المستعربين الفرنسيين أرادوا أن يرسلوا رسالة مفادها أننا مهتمون بالعالم العربي الإسلامي اهتماماً علمياً موضوعياً، وأنهم في العصر الحاضر لا يتحملون أخطاء الاستشراق الفرنسي أو الأوروبي السابق.

9- يبدو أنّ الاهتمام بالدراسات النحوية ليس كعنصر التفاعل الثقافي، و التبادل الفكري؛ بل وسيلة للتغلغل السياسي بحسب الدور الموكل إليها.

الهوامش:

¹ سورة الروم، الآية: 22.

² سورة المائدة، الآية: 48.

(3) انظر: محمود، المقداد. تاريخ الدراسات العربية في فرنسا. عالم المعرفة الكويت، عدد: 167، ص: 187.

(4) القراءة الاستشرافية للموروث الأدبي بين الموضوعية والإجحاف.، مجلة جذور عدد: 37، حبيب، بوزوادة النادي الأدبي، جدة 2014م.

(5) الخليلي، حورية. النص العربي القديم وتأويله عند بلاشير. الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط. 1، 2010، ص: 29.

(6) العقيقي، نجيب. المستشرقون. دار المعارف، القاهرة، 1964م، 36/1.

(7) فوك، يوهان. تاريخ حركة الاستشراق. ترجمة: عمر لطفي العالم، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا ط. 2، 2001، ص: 147.

(8) درويش، أحمد. الاستشراق الفرنسي والأدب العربي. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977، ص: 24.

(9) انظر: طرسون، عمر. البعثات العلمية في عهد محمد علي. الإسكندرية، 1924، ص: 24.

(10) سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ط. خاصة 2007 م، 6 / 271.

(11) العقيقي، نجيب. المستشرقون. دار المعارف، القاهرة، 1964، 151 / 1.

(12) نجيب فواز، مصطفى. بدايات اهتمام الغرب بالمشرق العربي.، ص: 170.

(13) الطيباوي محمد، عبد اللطيف. المستشرقون الناطقون بالإنجليزية. الترجمة العربية الملحق بكتاب الفكر الإسلامي الحديث. : (1975م، ص: 477.. البهي، مكتبة وهبة، ط 8،

(14) الزركلي، خير الدين. الأعلام. دار العلم للملايين، ط. الخامسة عشر 2002 م، 41/2.

(15) انظر: مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، عدد: 111. ص: 46.

(16) المقداد، محمود. تاريخ الدراسات العربية في فرنسا. سلسلة عالم المعرفة، 1992م، ص: 129.

(17) انظر: عمارة، إسماعيل أحمد. المستشرقون ومناهجهم اللغوية، المنهج التاريخي والمنهج المقارن والمنهج الوصفي. (، إريد، الأردن، ص: 19.

(18) سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. 312 / 3.

(19) المرجع السابق 6 / 11.

(20) المرجع نفسه 6 / 167.

(21) محمد يحياتن. دراسات حول اللغة العربية خلال فترة الاستعمار 1830-1930. منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2008 ص: 78.

- (²²) المرجع نفسه، ص: 77.
- (23) فوك، يوهان. تاريخ حركة الاستشراق. ترجمة: عمر لطفي العالم، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا، ط. 2، 2001، ص 50.
- (²⁴) المرجع نفسه، ص: 32-142.
- (²⁵) العقيقي، نجيب. المستشرقون. ص: 139.
- (²⁶) سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. 9/6.
- (²⁷) انظر: المحجوبي، إبراهيم. الاستشراق والإسلام مطارحات نقدية للطروح الاستشراقية.، دار الكتب الوطنية، بنغازي، (ليبيا، 2010، ص: 19.
- (²⁸) أحمد، درويش. الاستشراق الفرنسي والأدب العربي. د.ط، 2004، ص: 20.
- (²⁹) انظر: إبراهيم، الطيب. الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه في الجزائر. دار اليانبي، ط. 2001، ص: 22.
- (30) بلاشير، ريجيس. القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره. ترجمة: رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974م، ص: 104.
- (³¹) سيديو، لويس. تاريخ العرب العام. ص 458.
- (³²) ترجمة: د. علاء إسماعيل، د. خلف عبد العزيز النحو العربي. **Grammaire de l'arabe** رومان، أندريه. 1990م، ص: 10. Presses Universitaires d France. Paris.
- (³³) حسين، ممدوح و مصطفى، شاك. الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري سنة 668-792. دار عمار، عمان، ط. 1، ص: 621.
- (³⁴) عمارة، إسماعيل أحمد. المستشرقون وتاريخ صلتهم باللغة العربية بحث في الجذور التاريخية الظاهرة الاستشراقية. دار حنين، الأردن، ط. الثانية، 1992 ص: 28.
- (³⁵) سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. 51/8.
- (³⁶) المرجع نفسه. 33/6.
- (³⁷) Troupeu 'G. Lexique index du kitab de sibawayhi. paris 1976. p128.
- (³⁸) سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. 29/6.
- (³⁹) المرجع نفسه. 44/6.
- (⁴⁰) Histoire des croisades et du royaume de France de Jérusalem. v30p424.
- (⁴¹) العربي، إسماعيل. الدراسات اللغوية في الجزائر.، ص: 22.
- (⁴²) الحُبَّاز، محمد. صورة الآخر في شعر المتنبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2009، ص: 22.

- (⁴³) المسيري، عبد الوهاب. إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد. منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط2، 1417 هـ - 1996 م، ص: 1/615.
- (⁴⁴) المرجع نفسه، ص 813.
- (⁴⁵) باجو، دانيال هنري. الأدب العام المقارن. ترجمة غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1997، ص: 111.
- (⁴⁶) المقداد، محمود، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا. ص: 113.
- (⁴⁷) Les arabisants européennes et le système grammatical arabe dans l'histoire épistémologie langage vol 2 fasc 11980,p 3-4.
- (⁴⁸) سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. 99 / 6.
- (⁴⁹) المرجع نفسه.
- (⁵⁰) انظر: المقداد، محمود. تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، ص: 187.
- (⁵¹) سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. 72/6.
- (⁵²) المرجع نفسه 42 / 6.
- (⁵³) المرجع نفسه 42 / 6.
- (⁵⁴) بجاتن، محمد. دراسات حول اللغة العربية خلال فترة الاستعمار 1830-1930، ص: 77 المقداد، محمود. تاريخ الدراسات العربية في فرنسا. ص: 121.
- (⁵⁵) سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. 44 / 6.
- (⁵⁶) انظر: طرسون، عمر. البعثات العلمية في عهد محمد علي. الإسكندرية، 1924، ص: 24.
- (⁵⁷) انظر: سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. 4 / 6، و المقداد، محمود. تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، ص: 125.
- (⁵⁸) العقيقي، نجيب. المستشرقون. 161 / 4.
- (⁵⁹) سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. 65 / 6.
- (⁶⁰) المقداد، محمود. تاريخ الدراسات العربية في فرنسا. ص: 124.
- (⁶¹) المرجع نفسه، ص: 124.
- (⁶²) الشافعي، محمد بن إدريس. الرسالة. تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط. الأولى، 1358 هـ، 1940 م، ص: 45.
- (⁶³) المصدر نفسه، ص: 46.
- (⁶⁴) الخطيب، محب الدين. إحلال العامية في محل العربية الفصحى أمنية كل من يتمنى هدم الإسلام. الفتح، 849 (ذو القعدة، 1366 هـ) ص: 865.

- (⁶⁴) إدوارد، سعيد. العالم والنص والناقد. ت: عبد الكريم محفوض، من منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000، ص: 23/1.
- (⁶⁵) الخطيب، محب الدين. إحلال العامية في محل العربية الفصحى أمنية كل من يتمنى هدم الإسلام. الفتح، 849 (ذو القعدة، 1366هـ) ص: 865.
- (⁶⁶) إدوارد، سعيد. العالم والنص والناقد. ت: عبد الكريم محفوض، من منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000، ص: 23/1.
- (⁶⁷) سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. 5/ 305.
- (⁶⁸) المقداد، محمود. تاريخ الدراسات العربية في فرنسا. ص: 121.
- (⁶⁹) Blachere : Grammaire..p. 467
- (⁷⁰) سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. 6/ 43.
- (⁷¹) سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. 3/ 20.
- (⁷²) القزاز، عبد الجبار جعفر وهيب. الدراسات اللغوية في العراق. دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1981م، ص: 25.
- (⁷³) الحاج صالح، عبد الرحمان. بحوث ودراسات في اللسانيات العربية. 2017، 43/1.
- (⁷⁴) نصري، أحمد. آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم دراسة نقدية. دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع، ط. الأولى 2003، ص: 2.
- (⁷⁵) انظر: طرسون، عمر. البعثات العلمية في عهد محمد علي. الإسكندرية، 1924، ص: 349.